صفوة الفقراء

محمد تامر

صفوة الفقراء

تأليف: محمد تامر السيد

بسم الله، والصلاة والسلام على رسول الله

لله الشكر والحمد والفضل على سائر نعمه عموماً، وعلى نعمة إلهامه لي بإتمام هذا العمل الأدبي خصوصاً، وهو الموفق والمستعان. اللهم انصر إخواننا في فلسطين، وثبت أقدامهم وانصرهم على أعدائهم وخاذليهم. اللهم آمين.

إهداء

إلى زوجتي المستقبلية التي لا أدري ما إذا كان الله قد أَذِنَ بِقُربِ لقائي بها بعد أم لا، لكن عليها أن تعلم فقط أنني أحبها، وأنني أدعو الله دائماً أن يكون هذا اللقاء أقرب مما أتخيل حتى، وأنني منذ سنوات عدة كنت وما زلت أبحث عنها، وفي ذلك مستمرٌ إلى أن يخمد لهيب الشوق فأجدها، وأهدي كل كتاباتي المستقبلية إليها باسمها وبصفاتها.

لا أدري كيف يمكن للمرء أن يصدق أن حباً عابراً للأبعاد كهذا موجود، لكنني أؤمن بوجوده لأنني أعيشه، حب عجيب يتجاوز حدود المنطق والزمن لشخص لا تعلم متى تراه ولكنك موقن أنك ستراه، حب من وراء جدران المنطق والعقلانية، وتجربة ميتافيزيقية شاعرية لا تقبل عذوبتها وصفاً!

يداكِ على قلبي تطمئنه وتهدئ من روعه دائماً، تجعلينني سعيدة حتى وأنتِ غير موجودة، بنفس القدر الذي أعلم أنك ستحققينه لي عندما تصبحين موجودة في واقعي أنا!

إلى نيران هذا العشق العجيب الذي ألهب قلبي ووجداني لسنوات طوال وما زال يفعل، أهدي هذه القصة، وهذه المشاعر والأحلام المستترة بصفحاتها وتعبيراتها وكلماتها!

تنويه

هذه القصة ذات طابع رمزي وفلسفي؛ أي أنه ليس عليك أن تبدأ القراءة متوقعاً أن تجد أحداثاً شيقة أو منعطفات سردية غير متوقعة أو تطورات شخصية مميزة أو أياً كان، أنت تقرأ مجموعة من التأملات والملاحظات والأحلام والمشاعر والأفكار الشخصية الخاصة بي، والتي قررت أن أقدمها بأسلوب سردي في عالم "المدينة" الذي صنعته من وحي خيالي - رغم أنه ليس خيالياً إلى حد كبير كما ستلاحظ - والذي يقطن به الأغنياء والفقراء، والذي لا يرى المقبلون عليه منه سوى الأكاذيب والأضواء!

أذكركم أيضاً أن القصة خيالية بالكامل نتيجة اعتمادها التام على الرمزيات؛ القصة كُتِبَت بشكل شاعريٍّ رمزيٍّ كتفريغ لعدة أفكار وملاحظات وأمنيات وهذا ما يجعل المنطق لا يليق بها، هذا التنويه هام لئلا تفقد متعتك أثناء القراءة وأرجو أن يظل حاضراً في عقلك طوال رحلتك الصغيرة مع صفحات هذه القصة كي تكون متفهماً لوجهة نظري، ووجهة نظر القصة نفسها.

١

كان منظر المدينةِ يَسُرُّ الناظر إليه كما المعتاد؛ وكيف لا يُسَرُّ إثر رؤيته مَبَانٍ ضخمة وشاهقة الارتفاع ومنازل راقية التصميم والمعمار كتلك التي تَذخرُ بها مدينتنا، أو إثر رؤيته لتلك المتاجر والمحلات الكبيرة ذات السلع الغالية والنفيسة، وكل تلك الوجوه التي تزورها لتنفق ما معها ببذخ على سلعها أو تسير في الشوارع بأبهى زينتها في كل وقت وحين، كيف لا يسر وقد كانت المدينة تبدو كَجَنَّةٍ حديثة الطراز بلا مبالغة؟!

سأخبرك بالسر الذي يجعله لا يُسَر: أن تُرِيَهُ شاذاً عن القاعدة؛ فإذا كانت المدينة تلمع وتبرق بثرائها وحضارتها قبل ألوانها وأضوائها، دعنا الآن نُرِهِ فقرائها!

أَرَأَيت؟! لقد اشمأز وانصرف، وهذه من بديهيات الدنيا!

ولكن....إذا قَصَصتُ عليك قصة بعضٍ من أولئك الفقراء، أَيَرِقُّ قلبك لحالهم وتكون أنت شاذاً عن تلك البديهية الدنيوية السيئة؟ حسناً، على الأقل دعنا نجرب ونجري اختباراً بسيطاً لإنسانيتك وشفقتك، أَعِرني سَمعَك ودعنا نبدأ قصتنا ببعض التفاصيل عن بطلها الأول.

كان صاحبنا شاباً بعمر الثلاثين، ذا شعرٍ كثيفٍ ناعمٍ بني اللون، ووجهٍ طويل وعينين سوداوين بلون حياته، وجسدٍ نحيل نتيجة قلة الغذاء وكثرة الترحال؛ فهو لم يلجأ طوال حياته البائسة إلى الشحاذة كي يجد ما يسد رمقه، وإنما كان دائماً يحاول أن يجد عملاً مع أي شخص يقبل أناساً مثله؛ فتَارَةً تجده يعمل مع حداد، وتارة أخرى تجده يعمل مع بَنَّاء، والآن هو يعمل مع بائع طعام جائل

حالته المادية تحت المتوسطة بقليل، لكنه رجل كريم وصالح وأَحَبَّ صاحبنا كثيراً ورحب به ليعمل معه، وكان يقاسمه الطعام والأموال القليلة دائماً؛ فظل صاحبنا معه لما يقارب العَامَين.

عرض الرجل على صاحبنا عدة مرات أن يبيت معه في منزله، لكنه دائماً ما كان يأبى أن يفعل؛ فعرض عليه أن ينام ولو حتى في القبو لكنه أيضاً رفض، وأَصَرَّ دائماً على افتراش الشارع والنوم فيه؛ فكان ينام قريباً من منزل الرجل كل ليلة إلى أن يأتي الصباح فيخرج الرجل بعربته ويجول في الشوارع ويتبعه صاحبنا من على بعد، فلا يقتربان من بعضهما إلا قليلاً حتى لا يشمئز أحد من وجود صاحبنا فيرفض الشراء من الرجل!

ولا حاجة لذكر المزيد من التفاصيل عن حياة صاحبنا مع ذلك الرجل؛ فأنا أعلم أنك مللت الآن قبل أن أبدأ الحكاية حتى، وعلى العموم لم يكن هذا سوى مجرد تمهيد للقصة وليس بداية حقيقية لها، أما عن بدايتها الحقيقية فقد كانت بموت بائع الطعام هذا في أحد الأيام وتركه لصاحبنا وحيداً مجدداً كما كان وكما يبدو أنه قُدِّرَ له أن يكون!

كما ذكرت لك في السابق؛ صاحبنا هذا كان عزيز النفس لدرجة تجعله يخجل من تجربة الشحاذة؛ ولذا فقد حزن حزناً عميقاً على موت هذا العجوز الذي كان وحيداً مثله أيضاً ولم يحب أبداً أن يطلب الشفقة والمدد من أحد، وإنما رغب فقط في أن "يستحق" المال وليس أن "يكسبه"، كان صاحبنا كثيراً ما يشعر بأن ذلك العجوز هو نسخة كبيرة في السن منه نوعاً ما، وهذا أيضاً مما عزز علاقتهما عندما كان الرجل لا يزال حياً.

ما حدث بعد ذلك هو أن صاحبنا عاد إلى ترحاله القديم، والذي كان حالاً ثابتاً ومميزاً له منذ ما يقارب العامين؛ بحثاً عن عمل جديد لا يهتم ما إذا كان أصعب أو أهون من سابقه، المهم ألا يبيت جائعاً بشكل لا يجرح كرامته وعزة نفسه.

لكنه للأسف لم يجد عملاً بسهولة هذه المرة، وشعر بأنه سيموت جوعاً قبل أن يستكمل البحث؛ ولذا فقد قرر أن يدفن عزة نفسه وكبريائه مؤقتاً تحت تراب الجوع، وجرب أن يتسول بعض الطعام والنقود خلال ترحاله، والله وحده يعلم كم كان هذا الفعل جارحاً لنفسه وكرامتها، ولكن كان عليه في تلك اللحظة أن يختار ما بين التأقلم مع هذه الجراح لبعض الوقت وبين الموت جوعاً!

لم يكن اختياره غير متوقع بالطبع؛ فقد جرب الشحاذة بالفعل وحصل منها على بعض النقود التي أُلقِيَت إليه بنظرات احتقار كانت كفيلة بقتله بشكل أسوأ من الجوع، واستمر على هذا الحال لبضعة أيام يمكن أن نعدها على أصابع الكف.

وفي هذه الأوقات العصيبة وتلك اللحظات الأليمة....رآها!

٢

رأى نجماً لامعاً وسط غُبَارِ الفضاءِ

وقمراً منيراً يَبرُزُ من ظُلُماتِ السماءِ!

رأى الحُسنَ والجمالَ، والبراءةَ والصفاءَ

في وجهٍ يَبرُقُ كما الشمس التي تُزَيِّنُ البيداءَ!

نعم، بالتأكيد كانت أنثى!

كانت جالسة على الأرض مرتديةً ملابس رثة كتلك التي يرتديها، وكان جسدها هزيلاً أكثر من جسده حتى، لكن أكثر ما جذبه وجعله يمعن النظر إليها هو وجهها المستدير الصغير، وعيناها العسليتان الضيقتان، وملامحها الطفولية البريئة اللي تتعارض بشكل صارم مع حالة جسدها وظلال سوداء بارزة تحت عينيها، وشعرها القصير ذو اللون البني القاتم، كانت جميلة جداً بالنسبة إلى كونها متسولة كما يوحي كيس النقود الصغير الملقى بجانبها، وهذا هو ما ظل يخبر صاحبنا نفسه به متعجباً!

لقد رأى في ترحاله نساء جميلات كثيرات ولم يأبه لهن بالتأكيد، وما كان ليعتبر نفسه جديراً بأن يفعل أصلاً، لكن هذه حالة غريبة جداً لا يراها المرء كل يوم حسب ظنه؛ فقد كانت هذه المرة

الأولى التي يرى فيها فتاة بهذا الجمال تشحذ فتات الطعام وقطع النقود القليلة، هو لا يأبه بحاله على الإطلاق فهو يعلم أن هنالك مثله كثير من الناس، لكن....لا يرى المرء كل يوم فتاة عذبة الملامح والجمال تجلس بهذه الحال!

اقترب منها صاحبنا وقد بدا على وجهه العجب، وسألها وهو يزدرد لعابه: "ما اسمكِ؟!"

فسألته بدورها بلهجة باردة حذرة: "ماذا تريد؟!"

-الحقيقة أنني أعجب لحالك وحسب...أنتِ أجمل من أن يكون حالك هكذا!

عقدت حاجبيها، وشعر صاحبنا أنه أخطأ فيما قاله فَهَمَّ بالاعتذار مبدياً أسفه على ما قال، لكنها أشارت إليه أن يجلس بجانبها قبل أن يفتح فاه حتى لينطق بكلمات الأسف!

وقد استجاب لها فجلس بجانبها، ولم يتحدث أي منهما لبعض الوقت، وخَيَّمَ عليهما صمت ذو رهبة جعلتهما لا يقدران على كسره، إلى أن قُطِعَ فجأة بقولها: "أتستنكر علي أنني جميلة؟! أترى أن الجمال أيضاً ليس من حقي؟!"

عقد حاجبيه وقال بلهجة آسفة: "لا أقصد ذلك أبداً، إن حالي مثلكِ كما ترين ولذا فأنا لا أستنكر عليكِ شيئاً أبداً، أعرف في قرارة نفسي أننا نستحق أن نحيا مثلما يحيا أولئك الناس ولكن...أحياناً أشعر فقط...بأن هذا لا يليق بنا!"

سالت دمعة على خدها وهي ترد: "ربما لا يليق بنا أن نحيا أصلاً!"

-كلا....لا تقولي هذا، أعلم أننا لم نأخذ فرصتنا في الحياة كبشر..."طبيعيين"، ولكن لا يجب أن يجعلنا هذا نكره أنفسنا لهذه الدرجة!

=أياً كان ما تقوله!

-...هل فكرتِ يوماً أن حالنا هذا يجعلنا مميزين بشكل ما؟!

=مميزين؟! لا أدري ما هو مفهومك عن التميز ولكن يبدو بأنك تظن أنه جيد بشكل مطلق؛ ماذا لو أن كوننا هكذا يجعلنا مختلفين بالفعل ولكن بشكل أسوأ من غيرنا؟!

-أفهم ما تقولين ولكن...الأمر أنني أحاول دائماً أن أرى جانباً جيداً في كل ما يحدث؛ ربما رُحِمنا من أوجاع المشاعر والعلاقات بين الناس، ومن الجوع والألم، ونعم...الجوع والألم وجودهما بشكل معتاد يقضي على قيمتهما وسلبيتهما...إنني أسمع أحاديث وحكايات أثناء تجوالي تجعلني أحياناً سعيداً بحالي، لا أظن أن هنالك من جرب كل السعادة في الدنيا أو كل الألم فيها، ولا حتى نحن!

=...تقول بأن حالنا أسعد من غيرنا؟!

-نعم، على الأقل نحيا أحراراً!

=....في زمان ومكان آخرين كان يمكن لكلماتك تلك أن تكون منطقية أكثر!

-وماذا لو أنها...

=دعك من كل هذا، إننا نتحدث ونحن لا نعلم أسماء بعضنا حتى ولا نعلم ما إذا كنا سنرى بعضنا مجدداً أم لا، وأنت هنا...تعظني! وهذا حقاً يثير السخرية!

-لا بأس...

=فقط اصمت، أيمكنك ذلك؟!

قالت جملتها الأخيرة وقد زادت دموعها، وبدأ صوت بكائها يعلو أكثر؛ فالتزم صاحبنا الصمت لبعض الوقت منتظراً إياها أن تقطعه بكلامها مجدداً، إلى أن حدث بالفعل وتكلمت: "اسمي هبة، ولم أشعر في حياتي بمعنى اسمي...وأنت؟"

-اسمي عزيز، لكني شعرت في حياتي بمعنى الاسم!

=هه! وكيف لك ذلك؟!

-أقصد هنا عزة النفس؛ فأنا لا أتسول النقود حقاً وليس في هذا إهانة لك بالطبع، لكن الأمر أنني أحب أن أعمل لأستحق المال أو الطعام.

=إذن فأنت تعمل، وماذا تعمل يا ترى؟

-...في الحقيقة لا أعمل حالياً؛ فقد مات رب عملي الأخير؛ ولذا فأنا أجول في المدينة بحثاً عن عمل آخر.

=وإذا غلبك الجوع، هل ستتسول قوت ليلتك؟!

-في الواقع لقد حدث هذا منذ بعض الوقت، لكن لم أتسول إلا بالقدر الذي يكفيني وحسب.

=إذن فأنت الآن ذاهب في طريقك لمتابعة البحث عن عمل ما؟

-نعم، ولكن لا مانع من أن أستأنس بأحد مثلك لبعض الوقت، هذا لو أنكِ لا ترين مانعاً كذلك!

=...كلا، لا أرى مانعاً؛ فالوحدة أليمة، ومن الجيد أن يستأنس أمثالنا بأشخاص مثلهم إذا التقوا بهم، وبما أنك التقيت بي فلا بأس، استأنس كما تريد ثم امضِ لحال سبيلك إن أردت.

أومأ عزيز برأسه موافقاً، ثم عاد الصمت ليغزو جلستهما، وفجأة جاء رجل ووضع بعض النقود أمامهما وتركهما ورحل، وقد بدت عليه شفقة حقيقية على حالهما، وكأنه عرف حكايتهما من نظراتهما!

قال عزيز وهو يقبض على كمية كبيرة من النقود التي جمعها: "لدي بعض النقود هنا، إذا كنتِ تحتاجين..."

قاطعته: "كلا....لقد كنت أعمل منذ بعض الوقت مثلك، وحدثت بعض الظروف السيئة و...هآنذا هنا!"

-يبدو أن القصة نفسها وجدت طريقين مختلفين إلينا!

=سأعترف لك بأن هذه مصادفة مرحة نوعاً ما!

-نعم، هي كذلك بالفعل!

وهكذا، عاد الصمت ليخيم على الأجواء، لكن عزيزاً قطعه هذه المرة: "يبدو أنكِ حقاً لا تريدين الحديث، وربما لا تطيقين وجودي هنا أصلاً...."

قاطعته: "لا أريد أن أنظر إلى الماضي أبداً ثانيةً!"

-وسأحترم ذلك، وربما سألتزم به أيضاً، لن نتحدث عن الماضي قدر ما نستطيع وأعدكِ بذلك!

=...لقد كنت تقول إنك في طريقك للبحث عن عمل، أليس كذلك؟

-نعم، إنما أجلس الآن معكِ لأرتاح من تجوالي وحسب...

=دعنا نبحث معاً!

انفرجت أسارير عزيز واتسعت ابتسامته أكثر، وظهرت بهجته وهو يسألها قائلاً: "أتعنين ما تقولين ؟!"

=نعم، والآن هيا قبل أن أغير رأيي، لقد جلسنا بما فيه الكفاية وحان وقت التحرك قبل أن نموت جوعى، دعنا نبحث عن عمل أو نبتاع طعاماً بنقودنا!

قاما من مجلسهما، وشرعا يتجولان في المدينة معاً، ولكن الفارق هذه المرة بأن خطواتهما كانت أكثر سرعة ومتعة، ولأول مرة منذ وقت طويل جداً يشعر كل منهما أنه ليس وحيداً في هذا الكون، ويتمنى في قرارة نفسه أن يدوم هذا الشعور لوقت أطول وأطول، وأن يظل مع الآخر لمزيد من الوقت بأي سبيل، حتى لو لم يُظهِر ذلك للآخر!

٣

خلال تجوالهما سمعا فجأة أنغاماً موسيقية تأتي من مكان قريب؛ فقادهما الفضول والإعجاب بجمال النغمات إلى مكان تواجدها، وهناك رأيا ثالثاً مثلهما يجلس على الأرض بحالٍ لا يختلف عن حالهما كثيراً، اللهم إلا في كون هذا الثالث يمسك بجيتار خشبي قديم ويعزف ألحاناً عذبة عليه، وفي مقابل عزفه الحسن يلقي إليه من استمتعوا بألحانه نقوداً، ويا لها من طريقة رائعة لجني المال، ربما يكون الأمر في حد ذاته عملاً من نوع ما، وأمراً شاعرياً وجذاباً في الوقت ذاته!

اقتربا منه عندما انفض جمع المستمعين من حوله وقد أملا أن يجدا عملاً معه، كانت أمارات الخمسينات من العمر بادية عليه رغم ملامحه الوسيمة المرحة، نظر إليهما وفطن إلى أن حالهما كحاله فقال ضاحكاً: "رائع! صحبة من نفس المجال!"

رد عزيز: "نعم، لكن الفارق أن لديك عملاً جيداً هنا على ما يبدو!"

=حسناً، أعجبتني قوة ملاحظتك ولكني أرجو ألا تكون هنا لكي تحسدني!

-على الإطلاق! الحقيقة أننا...أعجبنا بألحانك و...نود أن نستمع نحن إليك، دون نقود إن كنت تسمح!

=أنتَ كاذب ماهر يا رجل!

-نعم ولا، الحقيقة أننا نبحث عن عمل، وأعجبنا حقاً بألحانك أثناء تجوالنا....

=ورأيتما ما أجني من مال ففكرتما في العمل معي!

-نعم، لا أكذب عليك، الأمر مفضوح أصلاً!

=ولا أدري سبباً يجعلك تخفي هذا، لكن الحقيقة أن الأمر سيكون جيداً بالنسبة إلي وربما حتى ممتعاً أيضاً و....جديداً! إن أحوالنا متشابهة كما يبدو، ولا مانع من أن نعمل معاً وأن أعرف وجوهاً جديدة وسط هذه الوحدة القاتلة التي أحياها لسنوات؛ ولذا فإنني حقاً ليست لدي أية مشكلة، اجلسا ودعونا نتحدث سوياً لبعض الوقت.

جلسا بالفعل بجانبه فسألهما عن اسميهما فأجاباه؛ فرد بدوره: "وأنا وحيد!"

رد عزيز: "أجل، كلنا كذلك!"

=كلا يا رجل، أنا اسمي وحيد!

-أوه...وبالطبع جعلتك الدنيا تعرف معنى اسمك، أليس كذلك؟!

=نعم، لليالٍ طوال....أطول من أن أشعر بها حتى!

-لا بأس الآن؛ فقد أصبح لديك رفاق جدد، أو هذا ما أرجوه!

=رجاؤك هو رجائي يا عزيز!

٤

سألهما وحيد عن نفسيهما، فتحدث كل منهما بكلمات قليلة عن نفسه مع التحفظ على ماضيه؛ فابتسم قائلاً وقد لفت ذلك انتباهه: "أرى أنكما لا تحبان النظر خلفكما!"

أجابته هبة: "أجل، لا فائدة من ذلك سوى أنه يجلب للمرء مزيداً من الألم ليس إلا؛ فلو أن الماضي كان حزيناً سيحزنك، ولو أنه كان سعيداً فسيحزنك الفارق الشاسع بينه وبين ما تحياه الآن؛ وهذا ما يجعلني أفضل ألا آتي على ذكره أبداً!"

=إن تفكيرك هذا يعجبني حقاً أيتها الشابة، واحتراماً له سأتفق معه، أما عني فيكفيكما فقط أن تعرفا أنني أحب الموسيقى كما يبدو لكما، ولكن الأمر أن هذا الجيتار العتيق هو الذي استطعت أن أبتاعه بما كان لدي، ومنذ اشتريته وهو مصدر رزقي الوحيد؛ سكان المدينة يميلون لامتلاك الذوق الموسيقي و...كل تلك الأمور التي تظهرهم بشكل متحضر كما تعلمان!

رد عزيز: "أجل، يتحضرون بينما نتعفن نحن هنا!"

=أوه، ولكنني أفضل أن أتعفن وأنا بهذه الحال يا صديقي؛ فالمدينة أصبحت منافقة جداً في نظري بعد أن كشفت عن وجهها الحقيقي، دائماً ما أظن أن كوننا بعيدين عنهم هو فرصتنا لنظل أنقياء!

قالت هبة: "رغم أنني أشاركك القناعة ذاتها تقريباً، إلا أنني أشعر أحياناً أن هذا النقاء لن يفيدنا بشيء إذا بدأنا حقاً نشعر بالجوع!"

=أتعلمين؟ إنني أؤمن أن هذه الحياة ليست لنا، وعن نفسي فأنا أحيا منتظراً فرصة حقيقية لأموت؛ ما كنت لأجرؤ على قتل نفسي بالطبع ولهذا أنتظر! إنها النهاية الوحيدة الحقيقية والشريفة لهذه المعاناة وليس من المفترض أن تكون سعيدةً على الإطلاق، المهم أنك لن تكوني موجودة لتشعري بها، ولن يكون هنالك أحد آخر يشعر بها!

عاد عزيز ليتحدث:

"...لا أظنني أستطيع أن أجادلك...ليس هنالك للأسف خطأ واحد في كلامك! الأمر فقط أنني...أتساءل أحياناً لِمَ نحن؟! لِمَ كل هذا؟! كل ما في الدنيا يجعل أسئلتك تزداد وتزداد ليس إلا!

=ربما نحن مختارون يا رجل! ربما هذه هي مهمتنا؛ أن نكشف المدينة على حقيقتها!

-لصالح من؟!

=لصالحنا في المقام الأول بكل تأكيد! إنك تحيا دون حاجتك إلى المدينة لأنك تشمئز من أن تشعر بأنك محتاج إليها، إننا الآن يا صديقي نتمتع بأقصى درجات الحرية، وهو أمر لن يستطيع أهل المدينة أن يدركوه ولو بعد ألف عام! أنا لا أقول أن حياتنا نعيم...أقول فقط بأن قلوبنا ونفوسنا في نعيم حتى لو على حساب أبداننا!

-لكن روحي تتألم!

=هذا لأنك تخشى الموت، بمجرد أن تبدأ بانتظاره سيزول الألم!

-...لا أظنني سأكون قادراً على فعل ذلك قبل مرور وقت طويل!

=ولا بأس إذن، دع الوقت يمر ويعلمك دروسه، ودعنا الآن ننشغل بما بين أيدينا طالما أننا لا زلنا أحياء...انظرا يا رفيقَيّ إلى هذا الجيتار إذ أنني سأعلمكما الآن كيف تستخدمانه كي نتناوب العمل به!

مرت الأيام على ثلاثتنا أفضل مما سبق بالنسبة لكل منهم؛ فقد آمنوا جميعاً بأن الصعاب تهون ولو بقدر بسيط إذا تواجدت رفقة تعينك على احتمالها، فما بالك لو أن الرفقة بها أشخاص يجمعهم نفس الحال، نفس الألم والخوف المتخفيين تحت ستار التعود والكتمان، غالباً ما تصبح الأمور أفضل عندما تستطيع أن تفرغ ولو جزءاً بسيطاً من همومك ليحمله عنك شخص ما، أليس كذلك؟

بدأ وحيد يعلمهما العزف، كان عزفه شبه مثالي حقاً حتى ليظن المستمع إليه أنه كان عضواً في فرقة موسيقية يوماً ما؛ ويبدو أن هذا كان السبب الذي جعل المستمعين إليه في الشوارع يتوقفون بالفعل ليعطوه نقوداً، وقد حاول بطلانا أن يحسنا العزف ظناً منهما أنه كلما كان العزف أفضل ألقى الناس إليهم بمزيد من النقود، لكن وحيداً عندما لاحظ ذلك قال لهما: "يا رفيقَيّ، لا تعزفا حباً في النقود، أحبا الموسيقى نفسها، قُصّا قصتيكما بها!"

عملا بالفعل بنصيحته، ومع الوقت وجدا نفسيهما لا يأبهان كثيراً بالمال أو الطعام؛ فقد شغلت الموسيقى بالفعل جزءاً أكبر من روحيهما كما وحيد، وتغلغلت بداخلهما لتعرف كل حكاياتهما وأسرارهما وتفضحها بالألحان، وقد كان ذلك يثلج صدريهما نوعاً ما إذ أنهما وجدا في الموسيقى فرصة لتفريغ الأحمال النفسية والروحية الشاقة التي بداخلهما.

وقد نتج عن كل ذلك تطور في عزف ثلاثتهم وكذلك علاقتهم، وأيضاً نقود أكثر أُلقِيَت إليهم، وقد كان وحيد يجمع كل النقود في ليلة ما من الأسبوع ويذهب وحده ليجلب طعاماً للجميع، ويعود إلى

بطلينا حيث ينتظرانه في منزل صغير تابع لأحد أجداده كما ذكر لهما دون تفاصيل منذ اليوم الأول لهم سوياً؛ فيأكلون ويتسامرون وينامون، وفي الصباح يتدربون ويخرجون لكسب رزقهم ثم يعودون.

وقد مرت أيام كثيرة عليهم بهذه الحال، شعروا خلالها بأن جراح أرواحهم قد بدأت تُضَمَّدُ بعض الشيء، وتمتعوا لبعض الوقت بنعمتين عظيمتين؛ الصُحبَة والاستقرار.

والنعمة الأهم من ذلك؛ أن تنام وروحك لا تؤلمك!

وخلال تلك الأيام كانت الأحاديث قد كثرت بين بطلينا، رغم أنها لم تكن أبداً عن ماضيهما؛ إذا أن عزيزاً حاول مرة أن يعرف من هبة أصولها وحكايتها فصدته قائلة: "لا أود أن أعرف حكايتك ولا أود أن أحكي حكايتي، أود أن نظل رفيقين دون حكايات!"

ولكن رغم ذلك فإن كثرة هذه الأحاديث جعلت كلاً منهما يتشوق دائماً لخوض أي حديث مع الآخر، وقد تطور هذا الشغف بينهما ذات صباح كان وحيد فيه لا يزال نائماً، وكان بطلانا مستيقظين يتدربان، فتوقف عزيز عن العزف فجأة وقال لهبة وهو ينظر إلى وجهها: "عيناكِ جميلتان جداً، اعذريني على ما أقول ولكن...يبدو أنني لم ألحظ هذا حقاً منذ عرفتك سوى الآن!"

احمرت وجنتاها خجلاً، وردت: "أنت أيضاً...وسيم...نوعاً ما، في زمان ومكان آخرين لربما كان من المفترض أن تثير إعجاب بعض الفتيات!"

-أحقاً ترين ذلك؟!

=نعم، ربما ليس فقط بسبب الملامح والقسمات، ربما لأنني منذ أن وجدتني في الشارع وعرضت علي أن تمنحني بعضاً من نقودك شعرت بأنك...رجل صالح حقاً، وأتعلم ماذا لاحظت أيضاً في ذلك الموقف وأكد لي هذا الظن؟

-ماذا يا ترى؟

=أنك لم ترد أن تعطيني بعض النقود وحسب؛ بل إني رأيتك تقبض على كمية كبيرة من نقودك تكاد تتجاوز نصف ما جمعته وكنت مستعداً لتقدمها لي وأنت لم ترني قبلاً ولا تعرفني، والأدهى من ذلك أيضاً أنك جلست تحادثني وتحاول نصحي بطريقة ما، سأصارحك الآن بأنني رأيتك قوياً وصلباً منذ حديثنا الأول هذا؛ شعرت حقاً من كلماتك بأنك تسخر من الألم، وأنك أقوى من المأساة نفسها وليس العكس، أنت لست مثلي يا عزيز، أنت حقاً عزيز وقوي أيضاً!

-...أنا حقاً لا أدري ما أقول، وإنني لأشعر الآن بخجل عارم إذ أنني لا أرى أبداً أني أستحق كل هذا الثناء...

=بالطبع لا تستحقه يا عزيز!

-هه، نعم، أدرك ذلك!

=...بل تستحق أكثر منه بكثير!

-الآن أنتِ تبالغين!

قطع حديثهما استيقاظ وحيد المفاجئ ودخوله عليهما، وقد تمنى لهما الخير في صباحهما وبادلاه ذلك، ثم قال: "أرى أنكما أصبحتما تفهمان الأمر أكثر من ذي قبل! يا رفيقي، هذا الجيتار هو لكما كما هو لي، وهو شاهد وحيد على حكايتنا نحن الثلاثة سوياً، إنه من الآن ملك فعلي لكما كما هو لي!"

شكراه، ثم شرع ثلاثتهم يجهزون إفطارهم البسيط ويتناولونه سوياً، ويتجاذبون أطراف الحديث حول مستواهم في العزف، ومستقبل هذا العمل، وأماكن ووسائل أخرى لإيجاد الطعام، وغير ذلك من المواضيع التي يمكنك أن تتخيل أنهم قد يتحدثون عنها!

٦

لا تأتي الرياح دائماً بما تشتهي السفن، أليس كذلك؟

بالطبع لا تفعل...فقد مات وحيد!

كان ذلك في صباح أحد الأيام إذ أن بطلينا استيقظا ولم يجداه قد استيقظ بعد؛ فانتظراه لكن انتظارهما طال أكثر من المعتاد؛ فقاما إلى غرفته ليجداه لا يصدر أصواتاً أو حركة على الإطلاق؛ فاقترب عزيز منه أكثر واكتشف أن أنفاسه قد توقفت!

جلس على الأرض يبكي مصدوماً، وفهمت هبة الأمر فشرعت في البكاء هي الأخرى، واقتربت من عزيز وجلست بجانبه، وفي استسلام غير متوقع أرخت رأسها على كتفه ولكنه لم يرى أن الوقت مناسب للتعجب أو الاستنكار؛ فأحاطها بذراعه وقربها منه، وازدادت دموعه قائلاً: "لماذا حقاً ينتهي كل شيء؟!"

قالت هبة من بين دموعها: "أتعلم؟ إنني أحسده!"

-...والآن أنا حقاً مثلكِ!

=كان من السذاجة أن نظن بأن هذه السعادة البسيطة ستستمر بأية حال!

-لا...لقد استمتعنا بما كان ينبغي أن نستمتع به من اللحظات، وقد كان هذا كافياً لبعض الوقت، لكن نهايته أتت ليس إلا، وعلينا أن نتقبل ذلك!

=تقبله أنت الآن يا عزيز...إني أشعر أن الدنيا تتهاوى من تحتي!

-....إنني حقاً حزين يا هبة وأعلم أنكِ كذلك، لكني أريدكِ فقط أن تهدئي من روعك قليلاً قدر إمكانكِ لئلا يصيبك مكروه من فرط الحزن!

=....أتخشى علي؟!

-بالطبع أفعل، من بجانبي سواكِ الآن؟!

=....ومن بجانبي أنا الأخرى سواك؟!

ظهر شبح ابتسامة على وجه عزيز، وأخذ يربت على كتفها لبرهة من الزمن كانت دموعها خلالها لم تجف بعد، وسادها صمت قطعه فجأة بقوله: "لا مكان لنا في هذا المنزل بعد الآن يا هبة....سنعود إلى الشوارع!"

ردت من بين دموعها: "أعلم ذلك....كانت الشوارع وستظل هي منزلنا الوحيد!"

-سنترك المكان والجيتار كذلك، أعلم أنه أخبرنا أنه لنا كما هو له ولكن...لا أشعر فقط بأن الأمر سيكون صحيحاً إن...فعلناها....سنتجول لبعض الوقت في الشوارع...وفي نهاية الأمر سنعود إلى هنا، لن نتسول!

=ولكن كيف سنأكل؟!

-....هذه الدنيا ليست مكاننا يا هبة، ليس بعد الآن!

تبادلا النظرات لبضع ثوان، ثم ابتسمت هبة من بين دموعها قائلة: "ربما كان ينبغي لذلك فعلاً أن يحدث منذ البداية!"

رد عزيز بابتسامة مماثلة: "نعم، ربما عندئذ فقط نحيا كما ينبغي أن نحيا!"

٧

كان كل شيء يميل للغروب وليست الشمس وحدها، هذا حينما قرر بطلانا أن يخرجا ويأخذا جولة في المدينة ليس هدفها حقاً أي نوع من التسول، سارا في الشوارع ينظران إلى كل ما حولهما، والجديد تلك المرة أن يديهما كانتا متشابكتين!

اللعنة على الألم والجوع اللذين لا يميزان حباً أو براءةً في الدنيا، إن وجودهما الآن بجانب بعضهما جعلهما شبه مستعدين لمواجهة الموت نفسه، وقد حدثا نفسيهما بأن هذا حقاً ما كانا يتوقان إليه منذ البداية، ومنذ وقت طويل جداً!

لم يعد عزيز يأبه لشكوى معدته الجائعة، ولا لألم قدميه من المسير، لكنه الآن يأبه لهبة وحسب، وكذلك هي لا تأبه الآن إلا له!

نظر إليها فجأة خلال سيرهما، وظل يحدق ببصره ووجدانه في وجهها، وشعر أن فؤاده قد ذاب في عينيها، وأن سحراً ما يصدر عنها يجعل روحه تود أن تقفز خارجه لتلتحم بروحها، ولوهلة من الزمن شعر بأنها تبادله نفس الإحساس ولم يكن شعوراً كاذباً؛ فقد وصل كلاهما حينئذٍ إلى لحظةٍ وَدَّا فيها لو أن بإمكانهما نزع روحيهما بأيديهما ومزجهما معاً ليجعلاهما كائناً واحداً معنوياً يكسر حدود الزمان والمكان، ويطوف الكون كله ويتيه في الفضاء والسماوات...كانت لحظة لا تقدر على وصفها - ولو اتحدت - كل الأوصاف والأدبيات!

مَرَّا بعد قليل بمتجرٍ للثياب، فجلسا على مقعد فارغ مقابل له، وأخذا يسترقان النظرات من بعيد بَاسِمَين، إلى أن قال عزيز وهو يشير بيده إلى ثوب نسائي من المخمل الأزرق: "في زمان ومكان غير هذين، أعلم أنكِ كنتِ ستبدين رائعة في هذا الثوب!"

ابتسمت وهي تنظر له بدلالٍ قائلة: "أحقاً تظن ذلك؟!"

-كلا...إني متأكد منه! جمالكِ ليس كأي جمال رأيته سابقاً؛ فهو جمال يجمع بين البراءة والأنوثة....المهم أنني متأكد!

احمرت وجنتاها خجلاً وألقت برأسها على كتفه، ثم أعادت النظر إلى زاوية علوية من المتجر لتلحظ بعض الثياب المخصصة للرجال، فأشارت إلى معطف أسود من الجوخ قائلة: "وفي زمان ومكان غير هذين، أعلم أنك كنت ستبدو رائعاً في هذا الثوب!"

-حقاً؟!

=أجل؛ فإنني أحب قسمات وجهك الوسيمة تلك، وأحب أيضاً حكمتك وهدوئك، وأنك لا تعبأ كثيراً بالألم بل تبتسم في وجهه، إنني أشعر أنك تحتاج ثوباً كهذا يجسد قوتك وهيبتك، و....المهم أنني متأكدة!

ابتسم عزيز ابتسامة عريضة كشفت عن أسنانه، وجلسا لبعض الوقت يتأملان المتجر دون حديث؛ إذ أن فؤاديهما كانا ينطقان بأكثر مما يمكن للكلمات أن تدل عليه!

١١

مرت بضعة أيام قبل أن يحين موعد جولة أخرى لبطلينا في شوارع المدينة، كانا فيها ينظران إلى تلك الشوارع ويتأملان تفاصيلها بنظرات أقرب إلى الوداع، وخلال تلك الجولة وجدا فتاة صغيرة تلهو بالقرب من متجر حلوى؛ فابتسمت هبة وقالت لعزيز أن ينتظرها هنا إلى أن تتحدث معها قليلاً وتعود؛ سألها عزيز ما إذا كانت تعرفها لكنها لم ترد وأسرعت نحوها!

اقتربت هبة من الصغيرة بحب سائلةً إياها عن اسمها؛ فنظرت إليها الفتاة بشفقة وقالت لها: "اسمي براءة...تبدين جميلة جداً يا سيدة، لكن لماذا ملابسك بالية هكذا؟!"

تجاهلت هبة قسوة السؤال إذ أنه صادر من فتاة صغيرة لا تعني بالتأكيد ما تقول وإنما تسأل ببراءة، وردت: "ليس لدي مال كافٍ لأشتري ثياباً أفضل حالياً، ولكن يوماً ما سأجد طريقة لأرتدي ثياباً جديدة وأجمل من هذه، المهم الآن أنكِ أثرتِ انتباهي أنا و...حبيبي الواقف هناك بينما كنا نسير، ووجدتكِ جميلة جدا و...أنا حقاً أحب الأطفال يا براءة!"

-هل هذا الرجل هناك هو حبيبك؟ يبدو أنه هو الآخر لا يملك مالاً ليشتري ثياباً أفضل! أنا حقاً أشعر بالحزن لأنكما لا تملكان مالاً لشراء ثياب جديدة!

=حقاً؟! لأنني لا آبه أصلاً، ولا أحتاج المال أو الملابس!

-كيف ذلك؟ من المفترض أن يكون مظهرنا دائماً أنيقاً وجذاباً، وأن يكون معنا مال كثير لنحيا ونشتري ما نريد، هكذا تقول أمي!

=ولا أستطيع أن أقول أنها مخطئة بالطبع، ولكن ماذا عما بداخلنا؟ هل مظهره جيد أيضاً أم أن ملابسنا فقط هي الجميلة؟!"

-وما الذي بداخلنا؟

وضعت هبة يدها على صدر براءة قائلة: "قلبكِ يا صغيرتي، وروحكِ!"

ابتسمت براءة قائلةً: "حديثكِ ممتعٌ جداً يا سيدة...ما اسمكِ؟"

=اسمي هبة.

-أود أن يكون مظهر قلبي جيداً يا سيدة هبة!

=لماذا يا ترى؟ لتستعرضيه أمام الناس أم للجمال في حد ذاته؟

-مم...ما الذي ينبغي أن أختاره؟!

=الجمال في حد ذاته بالطبع! لا ينبغي أن يعني الناس لكِ شيئاً بقدر ما ينبغي أن تعني نفسكِ لكِ شيئاً أولاً!

-إن حديثكِ حقاً رائع يا سيدة هبة ويجعلني أشعر أنني فتاة كبيرة!

=وأنتِ بالفعل كذلك، وستكبرين يا حبيبتي وربما تتذكرين كلامي!

-لن أنساه أبداً، أعدكِ، وسأبلغه لأمي!

=...إذن، لِمَ أنتِ واقفة هنا؟

-أنتظر أمي؛ فهي بالداخل تشتري بعض الحلوى وستخرج قريباً، سأخبرها أنكِ تحتاجين بعض المال فنحن أغنياء وننفق أموالنا في أشياء كثيرة...

=كلا...كلا يا عزيزتي؛ أنا حقاً لا أريد المال على الإطلاق إنما أتيتُ إليكِ لأحدثكِ فقط!

-إذن فأنتِ حقاً لا تحتاجينه!

قطع حديثهما خروج والدة براءة من المتجر، والتي شهقت فور رؤيتها المتجر وأسرعت نحوهما لتجذب براءة من ذراعها وهي تصرخ في هبة: "أبعدي يديكِ الملوثتين عنها!"

ثم وجهت حديثها إلى براءة قائلة: "إنها تتملقكِ للحصول على المال، يا لكِ من صغيرة ساذجة!"

ردت براءة : "كلا يا أمي، لقد قالت أنها لا تحتاج المال أصلاً!"

لم ترد الأم، وإنما سارت مبتعدةً مع براءة التي نظرت إلى هبة مودعة إياها ومعتذرة لها بصوت مسموع: "وداعاً...أنا آسفة!"

لوحت لها هبة مودعة إياها وقد اغرورقت عيناها بالدموع وهي تراقبهما يبتعدان إلى أن دخلا شارعاً جانبياً ليختفيا عن الأنظار، وهنا اقترب عزيز الذي كان يراقب الموقف من مسافة قريبة وقال:

"كنت أود أن أمنعكِ من هذا لكنني ظننتكِ تعرفينها، والآن يبدو أنكِ لا تفعلين بعد ما رأيته يحدث! لا تبكِ يا هبة...هذا حال المدينة وهذا نحن بالنسبة لهم؛ مجرد قاذورات!"

قالت هبة من بين دموعها: "اللعنة على المدينة وعلى الناس وعَلَيَّ، أنا لا آبه! أخبرني فقط ما ذنب الصغيرة؟!"

-ليست مذنبة...حالياً هي بريئة، لكن في المستقبل وبمجرد أن تحصل على حريتها، من يعلم؟!

=....لماذا كل هذا يا عزيز؟! لماذا حقاً كل هذا؟!

-اهدئي يا هبة...لا تنسي بأننا نخطو خطواتنا نحو نهاية كل هذا، لقد اقتربنا يا عزيزتي!

احتضنها عزيز بقوة، وأخذ يربت على ظهرها قائلاً: "لقد اقتربنا يا هبة....لقد اقتربنا!"

٩

مرت الأيام تليها الأسابيع، وقد بدأ الهزل والضعف يبدو على جسدي عزيز وهبة إذ أنهما حرما نفسيهما من الطعام تقريباً لما يزيد عن نصف الشهر!

وذات يوم لم يخرجا فيه من منزل وحيد، أحاط عزيز هبةً بذراعه وسألها: "تشعرين بالجوع، أليس كذلك؟"

ردت: "أجل، وأشعر أيضاً بأن هذا لم يعد يهمني!"

-رائع، وهو المراد!

=إنني الآن أشعر بأنني أتألم كما لم أتألم قبلاً في حياتي كلها!

-وهو المراد أيضاً! أنا مثلكِ قد وصلت إلى أقصى مرحلةٍ من الألم؛ بطني تصرخ من أجل الطعام، وروحي تصرخ من الدنيا، وعقلي يصرخ من الخوف، ورغم ذلك...فأنا الآن أشعر بشكل ما....أنني أولد من جديد!

=...وأنا كذلك يا عزيز!

-هذا الألم...ربما يكون أفضل ما شعرت به في حياتي، إنني الآن أشعر أن روحي تسمو، وأنني وجدت سلاماً رائعاً بداخلي، وأن كل شيء في هذه الحياة حقاً لا قيمة له على الإطلاق، إنني أرى الآن نوراً يحيط بكل شيء أمامي، وأول ما أراه يحاط بهذا النور هو ألمي!

=....وأنا كذلك نوعاً ما يا عزيز!

-....أهم وأعذب ما حدث لي في هذه الحياة يا هبة أنني أحببتكِ!

=وأنا كذلك يا عزيز؛ إنني أشعر حقاً بأن هذه اللحظات اللي قضيتها معك هي جوهر حياتي البائسة كلها!

-إن الحب حقاً لشيء رائع يا هبة، وإنني أرجو للصالحين من أهل المدينة أن يتمتعوا بتجربته؛ فأنا الآن لا أرى في الحياة ما هو أهم منه، أو منكِ!

=وأنا أيضاً يا عزيزي!

صمتا لبضع ثوان، ثم قال عزيز ببعض الفضول والأسف: "سنموت دون أن نعرف حكايات بعضنا!"

قامت هبة وتوجهت نحو الجيتار، وجلست بجانبه لتعزف لحناً في قمة الأسى، ثم علقت بعد انتهائها عليه قائلة: "هذه الألحان يا عزيز هي حكايتي!"

ثم ناولته الجيتار قائلةً: "لم لا تقص علي حكايتك أيضاً؟!"

ابتسم عزيز، وأخذ منها الجيتار ليعزف لحناً لا يقل قسوة وأسى عن لحن هبة، ثم علق بعد انتهائه قائلاً: "هذه الألحان يا هبة هي حكايتي!"

ثم قام ليعيده مكانه، وعاد ليجلس ويحيطها بذراعه، وهذه المرة ألقت هبة برأسها على صدره، وقالت: "المهم في كل هذا أننا جربنا الحب، وأننا سنموت عليه!"

-كنت أود حقاً أن أحبكِ في ظروف أفضل من تلك يا هبة!

=وأنا كذلك يا عزيز، صدقني!

-أصدقك يا محبوبتي، أملنا الوحيد الآن أن نجتمع بعد الموت؛ علنا نحيا بعده في زمان ومكان آخرين أتمتع فيهما برؤيتكِ بالثوب الأزرق!

ابتسمت هبة كاشفة عن أسنانها وقالت: "وأنا أيضاً أشاركك أمنيتك؛ عَلِّي أراك بالمعطف في زمان ومكان آخرين!"

ابتسم عزيز بدوره وضمها أكثر، وقال: "هذا الحب حقاً يستحق أن نموت لأجله! إنني لا أستطيع أن أصف عذوبته يا هبة، وأشعر بالضيق أنني لا أقدر حقاً على الإفصاح بكل ما يحمله قلبي لكِ في هذه اللحظات من المشاعر!"

=وأنا مثلك يا عزيزي، لكن ليس عليك أن تهتم أو تشعر بالضيق؛ فأنا أعلم أننا في زمان ومكان آخرين سنكون قادرين على البوح بكل ما نرغب في البوح به، وأن العصافير ستحيطنا مغردةً أينما نكون معاً!

-آمل حقاً أن نستيقظ في زمان ومكان أفضل من هذين، هذه هي أمنيتي الأخيرة!

=وأمنيتي أنا الأخرى!

-...أحبكِ جداً يا هبة!

=وأنا أحبك بدرجة لا أستطيع وصفها بالكلمات يا عزيز!

-...وإذن، أراكِ في الناحية الأخرى!

=إلى لقاء قريب يا محبوبي!

وساد بينهما الصمت، ومرت الثواني تليها الدقائق تليها الساعات حيث أصبح نبض قلبيهما أبطأ، وقد استسلما للجوع والألم، والحب...

والموت.

تمت بحمد الله.